المحاضرة الأولى

التربية

المقدمة

حياة الأمم رجالها ونساؤها ولا رجال ولا نساء إلا حيث الأجسام الصحيحة والآداب الراقية وهذان الأمران لا يتمان إلا بالتربية القويمة لأن التربية هي التي تعين الطبيعة على إنماء قوى الولد الجسدية والعقلية وتصونه من أمراض الجهل الفتاكة وأخطار الإهمال الكثيرة وتكسبه فوق ذلك من قوة البدن ودماثة الأخلاق وحسن الاختيار ما يؤهله لأن يكون عضوا نافعا في الهيئة الجامعة، ومن منا نحن النساء لا تحب أن ترى ولدها (سواء كان صبياً أو ابنة) في مقدمة ذوي الشرف والاستقامة والمقامات العالية ومن أصحاب الفضل والصلاح والإحسان.

أجل إن كلاً منا ترغب في ذلك وتتمناه ولكن قليلات هنَّ اللواتي يساعدهنَّ حسن الطالع على إحرازه وإذا قدّر لهنَّ ذلك أي إذا قدر أن يكون لهنَّ أولاد محمودي الخصال فذلك اتفاقاً أو بتغلب الخير في سليقة الأولاد وليس بفضل الأمهات وعنايتهنَّ.

أقول ذلك وأنا لا أجهل مبلغ آداب نسائنا وصفاء قلوبهنَّ وأنهنَّ أبعد نساء العالم عن المنكرات وأكثرهنَّ تمسكاً بأهداب الفضائل والمبرات على أن ذلك لا يكفيهنَّ لمعرفة كيفية الاعتناء بصحة أولادهنَّ

وإرهاف أذهانهم إذ أن التربية علم واسع بل بحر زاخر لا يستطيع المربي خوض غماره بمجرد كونه فاضلاً أو أديباً بل من الواجب أن يتعلمه علماً ويقف على كنه أسراره حتى يستحق أن توكل إليه العناية بالأولاد أولئك الصغار الذين يصبحون يوماً رجال المستقبل. وإن صعوبة هذا العلم وعظم أهميته مع عدم تمكن الوالدين من معرفته قد دفعت الأقدمين إلى إقامة المربين والمعلمين للأولاد وحذت حذوهم الشعوب الأوربية والأميركية في الأعصر الأخيرة فاهتمت في أمر التربية اهتمامها بسائر العلوم أو أكثر فارتقت بلادها وتقدم شعبها تقدماً باهراً.

أما نحن فإننا لا نزال حتى الآن رجالا ونساءً نجهل قواعد التربية ولم يخطر لرؤساء مدارسنا الاهتمام بها ولا اكترث كتابنا بوضع مصنَّف واحد لتعليم الوالدين فن تربية الأولاد حتى أن أسلافنا مع ما بلغوا إليه من الحضارة وسعة المعارف وما اشتغلوا به من العلوم والفنون قد أغفلوا فن التربية ولم يثبتوا شيئاً من قوانينه في مصنفاتهم ولا يزال هذا العلم ماثلا حتى يومنا الحاضر.

ولكن أملنا بهمة صاحب الدولة رئيس الجامعة المصرية ورجال إدارتها الأفاضل أن يعنوا في أمر التربية عنايتهم في سائر العلوم التي تدرس في هذا المعهد العالمي فينشئوا فرعاً خاصاً لتعليم المعلمين قوانين التربية التي يجب أن يجروا عليها في معاملة الطلبة والاعتناء بصحة أجسامهم وأخلاقهم في جميع المدارس وما ذلك ببعيد على رجل الغيرة والفضل رجل الهمة والإقدام – رجل الوطنية الصادقة – رجل

الخير – رجل العمل – مثال الجد والنشاط – صاحب الدولة البرنس احمد فؤاد باشا حفظه الله وأيده بمعونته الصمدانية لإتمام مقاصده الشريفة وتنفيذ أعماله العظيمة التي طلعت تباشير فوائدها على الأمة المصرية وانتشر شذا محاسنها في سائر الأقطار العربية تذيع محامد مولانا عزيز القطر سمو الأمير المعظم عباس حامي الثاني خديوي مصر وسمو ولي عهده الكريم الأمير عبد المنعم رئيس الشرف على هذا المعهد العلمي العظيم.

أجل ليس ببعيد على غيرتهم العظيمة وهمتهم العالية أن نبلغ يوماً بآمالنا ما نرجوه من تحسن حالنا على أنه وإن تم لنا ذلك وبلغ معلمو مدارسنا أعلى منزلة من التربية فذلك لا ينقص من واجبات الوالدين نحو أولادهم ولا يغنيهم عن الاهتمام بهم في الصغر أي قبل دخولهم المدرسة وفي الكبر أي بعد خروجهم منها وفي ما بقي من الفترات التي يقضيها الولد إلى جانب والديه بعيداً عن أستاذه.

ولما كانت الأم اكثر ملازمة للولد كان أمر تربيته موكولاً إليها ولاسيما في دور الصغر وهو الذي أشد ما يكون فيه عقل الولد مرونة وقابلية للتكيف والتأثر بكل المؤثرات الخارجية فمن الظلم إذن أن تكون الأم جاهلة قوانين التربية لأنها تصبح بذلك آفة على ابنها بما تطبعه في ذهنه من المبادئ الفاسدة والاعتقادات السخيفة التي يصعب أن لم نقل يستحيل نزعها بعد ذلك.

ولكي يتضح لنا ذلك جلياً لنتصور طفلاً بين يدي أُمٍ جاهلة يتلوى من ألم المغص أو التهاب الحلق أو الحمى فتعلق تلك الوالدة في عنقه

الحجُب وتعمل له تعاويذ أو تبخره بالملح وإذا رمد تضع حول رأسه اللفائف وترك الأقذار والأوساخ تتراكم على عينيه اعتقاداً بأن غسلها مضر بهما فإذا كتبت هذا الطفل الحياة وبقي له شيء من قوة البصر شب بين الخدم إن كان من طائفة الأغنياء أو ترك في وهاد الإهمال إن كان من الفقراء، وفي كلا الحالين لا يطرق سمعه إلا الأحاديث المضللة والحكايات الخرافية وقصص الجان والعفاريت فضلا عن الشتائم والأكاذيب. فكيف تكون بربكنَّ حالة هذا الطفل صحياً وعقلياً لا شك أنها تكون حالة تعسة جداً لأنه متى شب على هذه التربية الفاسدة فلا يرجى بعد ذلك أن تصلح المدرسة ما فسد من آدابه، وتقوم ما اعوج من أخلاقه إذ أنى للأستاذ أن يؤثر على ذهنه المتشبع بالجهالة والقحة والبلادة والضلال

لا ريب أن السنين التي يقضيها الولد في المدرسة لا تكفي على طول مدتها لنسخ تلك المبادئ الخرقاء التي رسخت في طبعه وحال قيد الجهل والحمق الموضوع حول عنقه ولذلك يخرج من المدرسة وهو لا يفرق عما كان عليه وقت دخوله إليها إلاَّ بمعرفة قواعد العلوم ومبادئ اللغات التي يشحن بها دماغه شحنا دون أن يستفيد منها أدباً وهو مطابق لقول الشاعر:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

فإذا علمنا ذلك كلهُ ورأينا بعض شبابنا وبناتنا من خريجي المدارس يأتون أحياناً أعمالاً وأقوالاً تدل بفسادها وتفاهتها على أنهم ليسوا أرق

عقلاً من الجهلة الأميين والسوقة المتشردين لم يبق لنا سبيل للتعجب منهم كما لم يك لنا حق بلومهم لأنهم أبناء وبنات تربيتهم وما تلك الهيئات التي نشاهدهم عليها في الطرق والمتنزهات إلا صور معكوسة عن أخلاق أمهاتهم.

ولعمري أني لم أر عظة أبلغ من عمل ذلك المجرم وقد اقتيد للإعدام إذ مال على والدته فقطع لسانها اعتقاد بأنه كان السبب في وصوله إلى المشنقة وذلك بما كانت تلقيه والدته عليه من أحاديث الكذب والرياء وما كانت تبثه فيه من روح الشرور والمعاصي حتى أصبح بفاسد تعليمها وشر إرشاداتها أفاكاً قاتلاً ولصاً شريراً وبالحقيقة أن مثل هذا لا يسمى مجرماً بل شهيداً شهيد الجهل شهيد التربية الفاسدة، وما المجرم الحقيقي الذي يستحق الشنق سوى تلك المرأة التي قضى شؤم الطالع على ابنها أن تكون له أماً.

أجل إن الأم على شدة حبها لولدها وعطفها عليه هي التي تسلبه قوة جسده وبهاء طلعته وهي التي تقوده إلى ظلمات السجون وتجره إلى حبل المشنقة..كما أنها هي التي ترفعه إلى أسمى مراقي الكمال وتحيك له ببنانها المترفة أثواب العافية والجمال.

هذا ما جعلته مقدمة الموضوع الذي عزمت على البحث فيه والتبسط في فروعه وأسراره فلننتقل منه إلى.

المطلب الأول : في غاية التربية

إن التربية علم غايته إنماء الخلال الحسنة الموجودة في جبلة الولد واستئصال جراثيم الشر منها على قدر الطاقة. أقول على قدر الطاقة لأن من الصفات الموروثة ما يكون راسخا في طبع الولد رسوخا لا يمكن المربي نزعه مهما بذل من أنواع السياسة في معاملته وضروب الحنكة في تربيته ولكنه يستطيع في الغالب أن يلطفها أو يحولها إلى غايات شريفة حسنة العواقب مثال ذلك إذا كان من طبع الولد العناد والتصلب في الرأي فباستطاعة المربي أن يداوي علة تصلبه بتعويده الحذر والتروي في الأمور قبل البت فيها بحيث لا يكون في إصراره ما يعود عليه بالضرر والندم.

والتربية قائمة على نوعين أولهما تربية البدن بموجب القوانين الصحية وثانيهما تهذيب العقل بحسب النواميس الأدبية، فينبغي أن يسير هذان النوعان عن يمين الولد وعن شماله بخطوات متعادلة من حين ولادته إلى أن يبلغ أشده فإن بدا تقصير في أحدهما فاتت الفائدة المقصودة من التربية وكان مثل الولد مثل من يمشي على رجل واحدة.

ألسنا نرى في كل يوم كثيرين من ذوي البنية القوية والأجسام الصحيحة كالقرويين مثلا يقضون حياة طويلة وهم لا يفرقون عن حيوانات النقل بشكل معيشتهم واقتصارهم من دهرهم على كسر يتبلغونها وأكواخ يأوون إليها. أو لسنا نرى أيضاً كثيرين من الأولاد الأذكياء الذين توفرت اللهم وسائط التعليم والتربية الأدبية يعيشون ضئيلي الأجسام ضعيفي القوى عاجزين عن إدراك كثير من الأماني التي يتمتع بها أترابهم وكانوا

جديرين بها لولا ما فاتهم من صحة البدن وصلابة الأعصاب. نعم إن من الأمراض ما هو موروث كبعض المناقب والشوائب لا يمكن شفاؤه بمجرد العناية الجسدية على أن كثيرا ما يكون مرض الأطفال وموتهم مسببين عن جهل الأمهات قوانين الصحة فإنه يستدل من الإحصاءات الرسمية أن عدد الوفيات يزداد في الأطفال زيادة مطردة على نسبة تأخر الأمة وجهلها قواعد التربية الجسدية. ويسوؤنا القول أن معدل موت الأطفال في القطر المصري أكثر منه في سائر أقطار العالم وفي ذلك دليل واضح على أن فن التربية مجهول عندنا تماماً.

ولا غرو فنحن نرى فتياتنا وشباننا يقدمون على الزواج وكلهم يجهل الواجبات الوالدية تمام الجهل؛ فالشاب المتعلم لا يعرف سوى قواعد العلوم التي التقطها في المدرسة أو الصناعة التي يشتغل بها للقيام بأدواره، والفتاة إما أن تكون أمية جاهلة أو عارفة بالتطريز والعزف على البيانو والتكلم بلغات الأعاجم، فإذا ما رزقا أولادا حارا في كيفية تهذيبهم وأخذا يخبطان في تربيتهم خبطا قد يودي بحياتهم ويفسد أخلاقهم حتى إذا مات أحد منهم قالا هذا (عمره) ومن عاش سقيماً سيء الخلق رديء السيرة قالا تلك (قسمته)، وهكذا يقتل الآباء والأمهات أجساد أولادهم ونفوسهم وآدابهم لقلة اختبارهم وتعرضهم لمهمة لم يسبق لهم علم بها ولم يستعدوا لها.

ومن العجيب أن ما منهم من يتعاطى عملا أو صناعة أو حرفة مهما كانت بسيطة قبل أن يتقن تعلمها أولا فالمحامي لا ينصب نفسه

للمحاماة قبل أن يدرس على الحقوق والفلاح لا يتعاطى فن الزراعة إلا وهو على علم أو على بعض العلم بخصائص المزروعات وقابلية الأرض وتأثير السماد إلى غير ذلك من الاختبارات الزراعية، وهكذا النجار والحداد والخياطة والممرضة وسائر الصناع والمستخدمين فإنهم لا يتعاطون مهنة دون أن يتعلموها أولاً، أما الآباء والأمهات فإنهم يتولون أمر التربية ويسنون لأولادهم شرائع تجري قواعدها على أجسادهم وأذهانهم وهم لا يدرون شيئاً من قوانين الصحة والتربية الأدبية.

وهذا ما دعاني إلى اتخاذ التربية موضوعاً للبحث معكن أيتها السيدات الفاضلات علَّنا بذلك نهتم في إيجاد وسائل لتحسين التربية في المدارس وتعليم الفتيات قوانين الصحة وقواعد الآداب الصحيحة حتى إذا أصبحن يوماً أمهات يدركن ما عليهن من خطورة الواجبات الوالدية فيرتقي بذلك مجتمعنا ويصلح شأن أفرادنا بإصلاح التربية العمومية وتهذيب أخلاق الناشئة على قواعدها الصحيحة.

ومعلوم أننا في عصر انتشرت فيه آيات المدنية الأوربية على ما فيها من المساوئ الكثيرة التي يجهر بها الغربيون أنفسهم والتي كنا في مأمن من أخطارها في عصور الجهالة الماضية فأصبح من المتوجب على الأم حتما أن تسهر على بنيها وبناتها بعين التيقظ والاهتمام وترشدهم إلى السبل القويمة وتنشئتهم على أصول الآداب الراسخة والأخلاق الصالحة التي لا تؤثر بها عواصف الأهواء وأعاصير التقاليد جاعلة أساس تربيتها الشرف الصحيح والصيت الحسن اللذين إذا رسخا في أمر هان عليه كل عزيز في سبيل صيانتهما.

وما أجمل ما وقع تحت بصري في أحد المؤلفات من ملحة حكمية أنقلها إليكن تفكهة وذكرى:

زعموا أن الماء والنار والصيت الحسن اصطحبوا مرة، ثم أرادوا الافتراق فقالوا: "ليجعل كل منا لنفسه علامة نعرفه بها إذا طلبناه"؛ فقال الماء: "أنا أكون حيث تكون الخضرة"، وقالت النار: "وأنا أكون حيث يكون الدخان"، قال الصيت الحسن: "أما أنا فإن من يفقدني فلا يجدني أبداً".

إننا نجد في هذه الملحة أمثولة حسنة يجدر بالأمهات تكرارها على مسامع أبنائهن وبناتهن حتى ترسخ في أذهانهم وتجعل فيهم استعدادا لاقتحام لجة الشبيبة على ما فيها من الأخطار دون أن يلحق بأجسامهم وآدابهم أمراض وأضرار.

والتربية تتناول أدوار الحداثة والصبوة والكهولة وهي إنما تتم في ثلاثة أنواع: النوع الأول «التربية الوالدية» وهو يأتي في زمن الطفولة والحداثة، والنوع الثاني «التربية العالمية» وهو يتناول زمن الصبوة، والنوع الثالث «تربية المرء نفسه بنفسه» وهذه تمتد بقدر استعداد المرء للاكتساب من مخالطة الناس ومعاشرتهم.. وسأبحث في كل نوع منها على قدر الاستطاعة على أني قبل الولوج في الموضوع أبسط لمحة عن حالة الوالدين وما يجب عليهما اتباعه لدى أولادهما بحيث يكون مقامهما محترما لديهم وأوامرهما مطاعة منهم وتعاليمهما وإرشاداتهما مفيدة لهم.

المطلب الثاني: في الوالدين

رأى أحدهم ولداً في طريقه فاجتذب نظره إليه ما رآه فيه من إمارات الطيش والنزق وما كان يقذف به إخوانه ورفقاءه من الشتائم والسباب وما يرميهم به من الحجارة؛ فاقترب منه وسأله: "ما اسمك؟"؛ فأجابه: «شيطان»، قال: "وما اسم أبيك؟"، أجاب: «شيطان»، قال: "وما اسم أمك؟"، قال: «شيطانة»، قال: "وكيف ذلك؟". قال الولد: "إني أسمع أبي يدعو أمي شيطانة، وأمي تسميه شيطاناً وكلاهما يناديني يا شيطان".

ولا بدع فإن الأبوين هما أصل الأسرة، ومن البديهي أن على الأصول ينبت الورق فلا يرجى من الشوك عنب، ولا ينتظر من الشياطين رجال، بل كما يكون الأبوان ينشأ الأولاد. ولذلك فمن أول واجباتهما أن يحترم الواحد الآخر ويعامله باللطف والمعروف حتى يشب الأولاد على احترامهما كليهما، هذا مع وجوب المحافظة على كل لفظة وإشارة وسكنة تبدو منهما ولاسيما بحضرة الأولاد بحيث لا يقتبسون عنهما ما لا يودانه لهم من العادات والأخلاق فإن ذهن الولد أشبه بأسطوانة الحاكي (الفوتوغراف) فهو يلتقط كل شيء يراه أو يسمعه أو يشعر به وخصوصا إذا كان ذلك الشيء صادر عن والديه لما له من الثقة العظيمة بهما فضلا عن مخالطته إياهما وحدهما في زمن الصغر.. والحالة هذه هي المثال الأكبر الذي يتخلق الأولاد بشكله وينسجون على منواله وعليه؛ فأقل ما يلامس أعمال الوالدين من الخطأ والغلط ينتقل على

صورته إلى أذهان الأولاد ويعد لهما ذنبا عظيما يعاقبان عليه في مستقبل الأيام، وذلك حينما يأتي زمن الحصاد زمن يجني فيه الآباء ثمار الحياة التي قضوها في سبيل تربية الأبناء، ويا لها من ساعة رهيبة تتفتت لها الأكباد ساعة يعودون فيها من أولادهم بالخيبة ومن الإنسانية باللعنات.

ومن أفظع الأغلاط التي يرتكبها الزوجان أن يلوم أحدهما الآخر، أمام الأولاد، على هفوة أتاها أو بادرة بدرت منه؛ فإن ذلك يقلل من وقارهما وينقص من ثقة الأولاد بهما، وعلى الوالدين أيضا أن يكونا باشي الوجه طلقي المحيا يعاملان الأولاد معاملة تتراوح بين الشدة واللين بحيث يكونان في كلا الحالين محبوبين منهم ومطاعين في آن واحد لأن الطاعة من أهم أركان التربية ولكنها إذا كانت ناتجة عن خوف الولد من مربيه فهي تفيده لأن تأثيرها لا يتجاوز ظاهر أعماله. فإذا ما حانت له فرصة غياب مربيه أو غفلة منه داس القانون الذي وضعه له غير هياب ولا وجل ولا خير في عمل يأتيه الإنسان مرغماً.

والانجليز من هذا القبيل أقدر الأمم على اقتياد الأطفال بالرفق والحب إلى دائرة الطاعة.. حدثني بعضهم قال: ذهبت مرة لزيارة إحدى الأسر الانجليزية؛ فأبصرت لدى دخولي ابن صاحب البيت وعمره خمس سنوات وكان واقفا على بعد خطوات مني فحييتهُ فرد تحيتي بمثلها من بعيد، ولم تكن تلك عادته؛ فسألته أن يقترب مني فأبى معتذرا بأن أمه أمرته أن لا يتعدى الخط الذي أمامه.. قال ذلك وأشار إلى خط أسود يفصل بين قطع الرخام؛ فسررت من طاعته وأثنيت على أدبه. فمن من

أولادنا يطيع والديه مثل هذه الطاعة التامة التي تعود عليهم بالفائدة وعلى الأمهات بالراحة".

ولكي تستتب السلطة للوالدين ويجتذبا إليهما قلوب الأطفال يجب أن يظهرا بمظهر العدل والإنصاف ويلبسا لكل حالة لبوسها أي أن يستعملا الشدة والعنف حينما يكون الأولاد مذنبين، وفي غير ذلك من الأوقات ينبغي أن يعاملاهم معاملة أصدقاء وأقران. ولا بأس من مباسطتهم وملاعبهم وإهدائهم أشياء تسرهم حتى إذا عوقب الولد يوما بحرمانه تلك الملاطفة والملاعبة يشعر بنغص وألم. وقد يكون في امتناعهما مرة عن تقبيله ما هو أشد تأثيرا عليه من العقاب والضرب

على أن بعض الآباء يزعمون أن التربية تكون بإظهار العنف والقسوة والتلبس بالخشونة والعبوسة فيُرى الأب منهم مقطب الجبين في منزله كأنه آلة للانتقام أو مثال للإرهاب فيجتنبه الأولاد ويتوارى كل منهم في زاوية خوفا منه ورهبة من غضبه لا احتراما له أو حبا به وهذا ما يخالف قوانين التربية.

يحكى عن جلالة إمبراطور ألمانيا أنه على سعة ملكه وعظم جبروته وما عرف عنه من القسوة في معاملة أولاده والتدقيق في تربيتهم، أنه كان يلاعب أطفاله دائما في ساعات فراغه من الأعمال وكثيرا ما كانوا يضعون في فمه (لجاما) ويسوقونه كالجواد، فيركب أحدهم على ظهره ويعمل الآخر فيه السوط وهو يمشي على الأربع مقلدا بذلك الحيوانات بالرفس والنهيق، وأطفاله من حوله يقهقهون مسرورين.

وبشاشة الوالدين في وقت الرضى هي بمثابة مكافأة للأولاد على صلاحهم كما أن استعمال القسوة والصرامة ضروري في تأديبهم وكلا الأمرين لازم في موضعه، ولا يخفى ما للأطفال من رقة القلب ولطف المزاج وسرعة التأثر فلا محسن بالآباء أن يكاشفوهم مصائبهم أو يفاجئوهم بما يثير مكامن سرورهم أو حزنهم بل أن يتجلدوا لديهم على ما يكرهون ويتركوهم في بحبوحة الصفاء يرتعون، ومن الخطأ الفظيع إهمال أكثر أغنيائنا تربية أولاده وتعليمهم بأنفسهم اعتقادا منهم أن ما جمعوه من الثروة والغنى يكفيهم مئونة العلم والتربية؛ فيكل الأب شؤونهم للأم، وهذه تسلمهم العناية الخدم، وقد فاتهم أن المال وحده لا يصير رجالا ولا نساء بل قد يكون معواناً لجملة على الشر لأنه يساعدهم على اتباع أهواء النفس، والنفس أمارة بالسوء، فضلا عن أن عيشة الكسل والرخاء من شأنها أن تصغر الهمة وتحط العزيمة فيشب الولد على الترف والتنعم معتقدا بدوام الحال.. فإذا جاء وقت اضطر فيه إلى العمل لم يكن ذا نشاط وذكاء بل يظل يتخبط في حياته تخبطا يستهلك على الغالب ثروته ويفضي به إلى الفاقة والذل..

وعلى الجملة فإن من أول واجبات الأبوين، ولاسيما الأم التي هي رفيقة الولد أن تكون قدوة حسنة لأولادها لا تأتي ما تريد صرفهم عنه ولا تنهاهم عن أمر وتأتي مثله ولا تعدهم بشيء ثم تنكث بوعدها فإنها بذلك تعلمهم الكذب والإخلاف ولا تأمرهم بطول الأناة والحلم ثم تسخط عليهم لأقل هفوة ربما لا تستوجب الغضب فيتدربون على الحدة والتبرم

وسوء الخلق ومتى عرف الأبوان كيف يملكان طباعهما ويحافظان على مقامهما في الأسرة زال معظم الصعوبة من أمامهما ودانت لهما نفوس الصغار فيصبح في وسعهما حينئذ أن يبثا فيهم روح الفضائل والميل إلى العمل والاقتصاد والاستقامة والحشمة، وبذالك يجدان فيهم يوما رجالا ذوي جد ونشاط يعملون على خيرهم وخير إخوانهم في الإنسانية ويخلصون الخدمة لوطنهم العزيز الذي لا تقوم له قائمة إلا بأمثالهم، ونساء مهذبات مثقفات قادرات على إرضاع الأولاد لبان التربية الصحيحة فيفاخران بهم ويعتزان بآدابهم وفضائلهم.

المطلب الثالث.. في التربية الوالدية

تقسم التربية الوالدية إلى قسمين: بدنية، وأدبية.. وكلتاهما تبتدئان من ساعة ولادة الطفل لأنه متى فتح الطفل عينيه على العالم وبكى، فاحتضننته والدته وأسكتته، أو جاع فأرضعته؛ فعملها هذا يد تربية له وعليه فكلما يبدو فيه من عادات وملكات فهي نتيجة التربية لأن الطفل يولد لا قوام له في ذاته ولا قوة تعينه على معرفة الموجودات مما حواليه، بل هو كأنما التي في تيار هذا العالم وليس له من يقيه من اضطراب أمواجه سوى تلك الأم التي ترأمه وتعطف عليه فيظل في حمايتها متقلبا من حال إلى حال ومن دور إلى دور وهو كلما ترعرع ظهرت فيه نتيجة تربيتها أكثر فأكثر.

وكثيراً ما نجد بين الأولاد من لا يسكت إلا إذا كان محمولاً فلا تستريح والدته إلا متى نام وقد لا يدع لها وقتا للراحة، بل يضطرها متى نام

إلى أن تضعه في حجرها فإذا ألقته على الفراش استيقظ واستأنف الصياح فتظل الأم منهمكة به لا تستطيع أن تأتي عملا آخر في بيتها.. ولا يهنأ له عيش إلا إذا كانت حلمة الثدي في فمه دائما، وكثيرا ما أشطر الأم إلى التعويض عن ثديها بحلمة اصطناعية يتلهى بها الطفل عن إزعاج والدته.

وكذلك نرى في الأولاد من يطيق الاستلقاء على ظهره ساعات متوالية، وهو يناغي ويلعب بيديه بدون أدنى ضجر حتى إذا ما دنا وقت الرضاع بكى وتململ وربما وجد في تيقظ الأم ما لا يحتاج معه إلى البكاء؛ فهذا الفرق الذي نراه في الولدين على ما هو معلوم من مشابهة طباعهما ومطابقة تركيبهما في الأشهر الأولى ليس إلا نتيجة التربية؛ فالأول عودته أمه أن يكون محمولا وأن يأكل في أي وقت وساعة، والآخر عودته أن يكون مستلقيا وأن لا يطلب الغذاء إلا في أوقات معلومة؛ ذلك لأن الأولى كانت إذا بكى طفلها ألقمته الثدي فإذا لم تنجح معها هذه الواسطة حملته وجعلت تخطر به في المنزل فيصيح وهو لا يسكت إلا على الحال التي تعودها، في حين أن أم الآخر كانت إذا بكى طفلها تبحث عن أسباب بكائه فتزيلها فإذا استمر على البكاء تركته وشأنه إلى أن يسكت من نفسه فيعلم من ثم أن الصياح لا يجديه فائدة، وهكذا يدرِج الولد على عادات مكتسبة تجعله يتخلق بأخلاق خاصة ويتفرد بأميال تميزه عن غيره من الأطفال..

فإذا كانت تلك العادات حسنة استراح الطفل وأراح أمه من عناء كثير، وكان له من ذلك استعداد لاكتساب أشرف الخصال وحزم على

اقتحام أعظم الأعمال، وهذا ما يثبت لنا أن حياة الإنسان في دوره الأول موكولة لعناية الأم ورعايتها فهي التي تبث فيه روح المبادئ والطباع بحسب ما توحي إليها فطرتها ومكانتها من الاختبار حتى إذا نما الطفل جسماً وعقلاً نمت فيه تلك الأخلاق التي تأسس عليها وتأصلت فيه طباع أمه التي وكلت إليها الطبيعة أمر العناية به والاستئثار بتربيته فهي إذن مسئولة عن سوء أخلاقه ممدوحة على حسن طباعه.

ولا يخفى أن الولد كالغصن الرطب تميل به الأهواء كيفا مالت؛ ولهذا يجب الاعتناء بتهذيبه وتقويمه قبل أن يجف ويتصلب وهو بذلك يختلف عن الحيوان الأعجم الذي لا يحتاج طبعا إلا إلى القوت ولا يدرك شيئا من واجبات التربية سوى ما تدفعه إليه السليقة من العناية بصغاره حتى تبلغ السن التي تمكن فيها من إعالة نفسها والاستقلال عن والديها.

أما الإنسان فإنه مخلوق أدبي قابل للنمو العقلي كما هو قابل للنمو الجسمي، على أن هذا النمو لا يتم من تلقاء نفسه بل يلزم له من يعتني بصحته ويقوّم سيرته ويكسبه من الصفات الحسنة ما يؤهله للأعمال السامية ويعظم ثقة الناس به ورضاهم عنه لأنه لا غنى للواحد عن الكل بل كل مفتقر إلى أن يكون له علاقة مع بني جنسه فإذا لم يكن حاويا من شروط التهذيب والاستقامة ما يؤهله للدخول بينهم والتعامل معهم سقط وكان ضربة على والديه ومصيبة على المجتمع الإنساني.

ولطالما رأينا من السيدات من لا تحسن سياسة الصغار لجهلها قواعد التربية فيشب أولادها على التمرد والعصيان وقد اتصل الأمر

بعضهم أن يكيل لوالدته الصاع صاعين ويعيد إليها الشتيمة شتيمتين والضربة ضربتين وهي مع ذلك تبسم له استحسانا ناسبة ما قاله إلى الأطوار الصبيانية؛ فيحول اعتقادها بذلك دون عقابه، وعلى هذا تنتظر بلوغه السن التي فيها يعقل معنى تلك القبائح فيعدل عنها من تلقاء نفسه، وفاتها أن من شب على خلق شاب عليه وأن العلم في الصغر كالنقش في الحجر.

وقد يتصل العجز بالأم إلى ما وراء ذلك فتتوعد ولدها بشكايته إلى أبيه كلما أتى ذنبا حتى إذا حضر ذلك الوالد المسكين متعبا منهوك القوى الجسدية والعقلية أخذت تزيد في همومه وتضاعف متاعبه بسرد عيوب ابنها وتقبيح أعماله وحينئذ فإما أن يغطي الأب عن مساوى ابنه اكتفاء بما يساوره من الهموم الخصوصية، وبذلك تسقط منزلة الأم في عيني الولد لما يراه من عدم اكتراث أبيه بكلامها وشكايتها، أو يهيج غضب الأب لما هو عليه من التعب والانفعال فيؤنبه بعنف ويضربه بقسوة لأجل ذنب سلف أو إطفاء النيران غضبه.. وفي كلتا الحالتين لا تفيد العقوبة الولد بل يتعلم منها احتقار والدته التي يجدها قاصرة عن تربيته بنفسها وكراهة والده الذي يعاقبه على ذنب مضى وبقسوة وحشية لوفرة الذنوب التي تبلغها عنه.

ومعلوم أن الولد لا يشعر بوقر الذنب إلا ساعة ارتكابه إياه ثم يزول هذا الشعور بزوال احمرار وجهه، ولولا ذلك لما كان يخطئ ثانياً وثالثاً إلى ما شاء صغر سنه فعاقبته إذن واجبة على أثر كل ذنب يأتيه وإلا

عدها ظلماً وعدواناً وأضمر بسببها كرها لوالديه وحقد عليهما فإذا شب كان عقوقا عاتيا لا يحترم لها إرادة ولا يشعر نحوها بانعطاف وحنان.

هذا فضلا عما تجده الأم من التعب في سياسة أولادها مدة غياب أبيهم إذا كانوا لا يهابونها مثله ولا يطيعونها كما يطيعونه ولما كان الأب يغيب عادةً النهار بطوله كانت هي في عذاب دائم وعليه يجب أن تتولى هي بنفسها تربية الأولاد من عقاب ونصح وإرشاد متخذة لكل من بنيها وبناتها ما يوافق طباعه وأخلاقه من وسائل التهذيب، ومتى فعلت ذلك نالت السلطان المطلق على أفكارهم وإرادتهم وتمكنت من تربيتهم تربية حسنة واستراحت من أتعاب كثيرة فإن الأم الراقية التي تعرف واجبات الأمومة تستطيع أن تربي أولادها بدون مشقة كبيرة مهما كانوا كثرا، وتقدر مع ذلك أن تقوم بأشغال أخرى عديدة كالأعمال المنزلية والدرس والمطالعة وغير ذلك من الأعمال النافعة ومما يساعدها على ذلك رابطة الألفة وعامل الحب الطبيعي بينها وبين أولادها؛ فإذا عرفت كيف تستعمل تلك العواطف في سبيل فائدتهم خضعوا لها وكانت ثقتهم بها غير محدودة إذ لا ينكر ما للحب من السلطان على المخلوقات وما له من التأثير على القلوب والأفكار.

ولما كان الولد يميل بالطبع إلى والدته أكثر من سائر الناس فهو لا يرى إلا رأيها ولا يتبع إلا إرادتها، وعليه فلا يجمل بالأم أن تهمل الاستفادة من هذه الثقة وتكل أمر العناية بأولادها إلى الخدم الذين يجهلون قوانين التربية، بل إذا كان فيهم من يعرفها فمن أين له نظرات الأم المؤثرة وابتساماتها الحلوة التي قد يكون منها أصدق مهذب

وأحسن رادع عن الشر، بل من أين له الحنان الوالدي الذي يجمع الصغار تحت جناح الحب والإنصاف، ويلحم فيما بينهم بلحمة الإخاء والوفاق بحيث لا يكون ثمة تحاسد أو تباغض بل يهتم كل من الإخوة بتقديم مصلحة أخيه على مصلحة نفسه.

أما الأطفال الذين يحرمون هذه العناية فيشبون وهم أعداء لأنفسهم ولغيرهم لا يميلون على الإطلاق إلى نفع سواه وإنما هذا الميل ينمو فيهم تدريجيا بعناية والديهم حتى بلغوا طورا يرون فيه لزوم خدمة غيرهم ويقدرون الفائدة التي تقرر عليهم منها حق قدرها فيقومون بها عن طيب خاطر ويعملون الواجب عليهم نحو إخوانهم الذين تجمعهم وإياهم جامعة البشرية.

وإليكنَّ ما قالهُ شاعرنا الكريم حافظ أفندي إبراهيم :

الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعبا طيب الأعراق
الأم روضة إن تعهده الحيا ... بالري أورق أيما إيراق
الأم أستاذ الأساتذة الألى ... شغلت مآثرهم مدى الآفاق

إلى أن قال:

ليست نساؤكم حليًّا وجواهرًا ... خوف الضياع تصان في الأحقاق
ليست نساؤكم أثاثًا يُقتني ... في الدور بين مخادع وطباق

إلى أن قال:

ربوا البنات على الفضيلة إنها ... في الموقفين لهنَّ خير وثاق
وعليكم أن تستبين بناتكم ... نور الهدى وعلى الحياء الباقي